

الرأفة ، العفو و الرحمة في حكايا ألف ليلة و ليلة  
\*حكاية "التاجر مع العفريت" و حكاية " الصياد مع العفريت "  
و حكاية "وزير الملك يونان و الحكيم رويان" نموذجاً .

#### الملخص:

يعتبر كتاب ألف ليلة و ليلة من أهم الكتب التراثية العربية و هو إن لم يكن أهمها بالنسبة للعرب فهو أهمها بالنسبة للأجانب ، يدل ذلك كثرة ترجماته و طبعاته في اللغات الأجنبية و ليس هناك كتاب آخر يوازي قدرته على عبور الزمن ، فيه من الخيالي والعجائي بقدر ما فيه من الواقعي والحقيقي

و نص الليالي حافل بالقيم الإنسانية فهو رصد لعلاقة الفرد بالآخر، وتجلّ لبؤر النفس البشرية ببعديها الخير و الشرير، و جدير بالذكر أن ألف ليلة و ليلة تنتصر لقيم التسامح و العدل ، و ذلك أن شهرزاد كانت ترمي إلى تغيير الملك قصد التخلي عن دمويته .

## لمحة عن ألف ليلة و ليلة :

يعتبر كتاب " ألف ليلة و ليلة " من أهم الكتب التراثية العربية، وهو إن لم يكن أهمها بالنسبة إلى العرب فهو أهمها بالنسبة إلى الأجانب يدللك على ذلك كثرة ترجماته و طبعاته في اللغات الأجنبية وكثرة اهتمام الباحثين و القراء الأجانب به.

و مهما يكن شأن أهميته بالنسبة إلينا فهو أشهر مجموعة عربية قصصية على الإطلاق و قد اهتم به المثقفون اهتماما قطيع النظير، وليس هناك كتاب آخر يوازي قدرته على عبور الزمن فيه من العجائي والخيالي بقدر ما فيه من الواقعي والحقيقي، وفيه من الإباحية و المحزون بقدر ما فيه من الحب العذري و القيم الأخلاقية ، و فيه من قصص المغامرات الروحية وفيه من ضروب السحر والشر بقدر ما فيه من تحليلات الخير والنقاء وفيه من المآسي الضخمة والفواجع المبكية بقدر ما فيه من الملاهي الخفيفة والفكاهات اللطيفة.

ومع ذلك استطاع نص الليالي احتواء هذه الصيغ المتباينة في بنية سردية موحدة لا يبدو فيها أي تباين أو تناقض وذلك إن شهرزاد جعلت من عملية القص شبكة مغوية تقتنص فيها مخاوف شهريار وتقلع عبرها عقده و أفكاره الثابتة عن النساء وتكسب بها كل ليلة حياة جديدة تظل شروط استمرارها معلقة بجمال قص الليالي.

ألف ليلة و ليلة عالم فني و معرفي كله دلالات و مادة لا تنضب تتسم بمجموعة من السمات تتيح لها نوعا من التوالد السردى المفتوح الذي يوشك أن يكون لانهاثيا في تشكيلاته القصصية.

هي في مجملها مدار استقصاء و مجال انفتاح لا نهائي على احتمالات تأويلية لا تعرف الحدود.

و لئن أولى الغرب كتاب الليالي كبير اهتمام و تبحيل و أحاطوه بمالة من القداسة، و أكبروا فيه روح الخلق و روعة الإبداع و جمال التصوير، و هاموا بلياليه الساحرة فإن العرب قديما لم يهتموا به و لم يذكروه إلا عرضا، و لكن الأمر اختلف في العصر الحديث حيث التفتوا إليه فألفوه مادة غزيرة يمكن أن تمد الروائي و الشاعر و الرسام و الموسيقي بالمادة التي تمكنه من تجاوز التصوير المباشر و الصيغ النمطية و تنأى به عن عالم التقليد إلى عوالم غاية في الروعة . و لعلنا لا نعدو الصواب لو قلنا أن ألف ليلة و ليلة كتاب فريد؛ فريد بعوالمه الساحرة فريد بحكاياته، فريد بعناصره، فريد بشخصه....فريد في كل شيء . و هذا ما تنبئنا به فاتحة ألف ليلة و ليلة بأننا سنلج عالما متفردا يحتوي حكايات عجيبة و قصص غريبة و حوادث مثيرة، عوالم معلومة و أخرى مجهولة.

و لكن لا بد من الإشارة بأن عالم ألف ليلة و ليلة بقي إلى يومنا عالما غامضا لم تتكشف أسرارها بعد ، لأنه نص لا يقدم إليك نفسه بمجانية و سهولة ، بل هو نص يراوغك و يراودك حتى لتضع مجموعة من الاحتمالات اللاهائية و يحيلك على مجموعة من المجالات الميثولوجية و التاريخية و النفسية ، و يرغمك على ضرورة البحث عن " النص الغائب " ، و يدعوا قارئه إلى الإسهام في إنتاجه ، و من ثمة ينبثق سحر آخر لألف ليلة و ليلة من حيث هي نص لا يتحقق إلا بقارئه ووجود لا يتحقق إلا إذا ألهم خلقا آخر و من هنا كان التميز في نص الليالي ، إذ أنه نص يلفت الحاضر فيه إلى الغائب عنه ، و يقدم الظاهر منه الباطن فيه ، و يجذبنا ما تدنيه إلى ما تنأى به، و ما بين

المسافة الملتبسة للظاهر و الباطن ، الحضور و الغياب ، المكشوف و المستور يتحرك و عي القارئ إلا وعودها التي لا تنقطع مسحورا بقدرتها اللامتناهية على التشكل .

لقد حوت نصوص الليالي تجارب بشرية متنوعة، عاجلت قيما مختلفة خوَّلت لها أن تطبع بالطابع الإنساني المتكامل ، يمتزج فيه الخير بالشر ، و الجمال بالقبح ، و الحب بالكره ، و الحزن بالفرح ، و الوفاء بالخيانة ، و الظلم بالعدل لتتنصر قيم الخير و الحق و الجمال و الحب <sup>(1)</sup>.

لقد كان شهريار و شهرزاد يقتنصان الحياة و هما يتبادلان الموت و ينسجا مصيرهما الوجودي البقائي فيما كانت الفرعة الشهرزادية تحيك مصائر البشر و تدأوي العقد الشهريارية للملك كان يختفي خلف نظرتة الأحادية للمرأة ليمارس سطوته لكن سرعان ما انهار الجدار الذي كان يحتمي به، إذ جعلته شهرزاد يصفح و يسامح .

و سنحاول من خلال هذا البحث أن نتقصى قيم التسامح التي كانت شهرزاد تحاول تلقينها للملك عبر حكاياها، و نتتبّع كيفية تجلي التسامح في نصوص الليالي ؟

## (2)- تجليات التسامح في ألف ليلة و ليلة :

يمكن اعتبار ألف ليلة و ليلة ملحمة أسطورية تتجلى على نطاق سلطوي إستبداد تواجه فيه شهرزاد الملك الذي قرر أن يتزوج كل ليلة من عذراء ليقتلها في الصباح ، و لكن شهرزاد تستطيع أن تنتصر عليه بمسلسل حكايتها المشفرة بحيث تعرض شريطا من الصور المتابعة التي يتجلى فيها التسامح ، و قد كانت بهذا : " تعرض عليه صورته من جميع جوانبها " <sup>(2)</sup>

إن مواضيع حكايات ألف ليلة و ليلة أمثلة على الشطط و التعسف و قتل الأبرياء و تحقير الإنسان إلى مرتبة الحيوان، و لقد كانت شهرزاد تعلمه من خلالها الترفع عن ثورات الغضب و الغيرة و تكتشف له قصور أحكام البشر و تقوده عن طريق العاطفة إلى تعلم قيم التسامح من رأفة و عفو و تقيد بالمعايير في تطبيق العقوبات.

تبدأ حكايات الليالي بعمل تعسفي صادر عن حاكم متجبر فرض الموت على نساءه لأسباب غير منطقية، و تحاول شهرزاد أن تحمي نفسها منه عن طريق الحكاية من خلال ما تختاره من مواضيع و بإيراد حكايات معاكسة عن حكام اشتهروا بالعدل و التسامح.

تضمنت حكاية الليلة الأولى حادثة تبدو كأنها اختيرت عن قصد لتكون معادلا لقسوة شهريار من خلال حكاية "التاجر و الجني".<sup>(3)</sup>

تشير الحكاية إلى براءة شهرزاد التي لم تسبب الضرر لشهريار لذلك فنيته في قتلها تمثل قسوة أشد من قسوة العفريت الذي أراد قتل التاجر لآثته قتل ابنه خطأ، و بالفعل أدى موضوع هذه الحكاية إلى تبدل نوعي في موقف شهريار بأن أجّل قتل شهرزاد إلى اليوم التالي، و في الليلة الثانية اختارت موضوع تأجيل التنفيذ فشهريار منحها يوما كي يستمع لبقية الحكاية في حين منح العفريت للتاجر سنة كاملة و بذلك أصبح العفريت أكثر رأفة و تسامحا منه، و تنتهي الحكاية بالانتصار لقيم التسامح حيث صفح العفريت عن التاجر وعفا عنه.

لقد استطاعت شهرزاد من خلال هذه الحكاية إخفاء رسالتها وتشفيرها في "شفرة سردية معقدة يتوقف نجاحها في إبلاغ رسالتها الجوهرية المضمرّة على عدم نجاح مستقبل الرسالة في فك الشفرة..."<sup>(4)</sup>، و كانت

هذه الرسالة الشهرزادية هي ترجيحها التسامح على العقاب لتهديب شهریار لكي تنقذ نفسها من النطع و تجعله يقلع عن عادته الدموية.

و تواصل شهرزاد هدفها التعليمي محاولة شفاء ملكها عن طريق عرضها لمجموعة من قيم التسامح التي من شأنها تغيير علاقات القوى الجائرة، فشهرزاد هي أسيرة الملك مرتين، مرة بحكم السلطة السياسية و أخرى بحكم علاقات القوى الجنسية، فلما أنهت حكايتها "التاجر مع العفريت" بدأت في حكاية أخرى يتجلى فيها التسامح هي حكاية "الصيد مع العفريت"<sup>(5)</sup>

و تنص الحكاية على أن صياداً أخرج عفريتاً من قمقم في البحر كان حبباً فيه من عهد سليمان عليه السلام ولما خلّصه الصياد أراد قتله ففكر في حيلة أرجعه بها إلى القمقم فتوسّل إليه العفريت أن يخرجّه فعفا عنه و أخرجّه ثانية.

إنه تجلّى آخر للتسامح تريد من خلاله شهرزاد أن تعلم ملكها العفو عند المقدرة.

و المتتبع لحكايات الليالي يقف على تجلّي الوجه الآخر لمتخيل شهرزاد، ففي الوقت الذي تلقن فيه شهریار قيم التسامح تحاول عن طريق تشفير الرسالة أن تبين عاقبة من لا يسامح، فمن حكاية "وزير الملك يونان و الحكيم رويان" تطالعنا صورة الملك الذي لا يصفح ويقتل من أحسن إليه لمجرد أن مخاوفه تسيطر عليه، و كأننا بشهرزاد من خلال هذه الحكاية تواجه شهریار

بجدداً بحقيقته و صورته وعقده القديمة حيال النساء حيث أخذ كل النساء بذنب زوجته التي خانته، فراح يمارس القتل كل يوم على عذراء يتزوجها ثم يقتلها في الصباح لأن علاقته بها توقظ مخاوفه و تفتح أمامه

احتمالات الخيانة من جديد فاختارت شهرزاد حكايتها "وزير الملك يونان و الحكيم رويان" بإتقان لتعلم شهريار أن استناد الملك على مخاوفه ورفضه الصفح و العفو يؤدي إلى الهلاك مثلما حدث للملك يونان الذي أراد قتل الحكيم الذي أشفاه من مرضه لا لشيء إلا لأنه خاف أن يقوم بقتله و لما همّ الملك بقتل الحكيم توسل إليه أن لا يفعل لكن الملك أصرّ على قتله ففكر الحكيم في حيلة يقضي بها على الملك حيث ترك له كتابا وضع في صفحاته سماً وقال له إذا قطعت رأسي فافتح الكتاب و اقرأ ثلاثة أسطر منه فإن رأسي ستجيبك عن كل ما تسأل عنه ففرح الملك بذلك و وضع إصبعه في فمه ثم فتح الكتاب فانتقل السم إليه و مات (6)

وبهذا استطاعت شهرزاد في ليلاتها الألف ومن خلال حكاياتها التي تتضمن قيم التسامح رفع الموت لا على نفسها فحسب ، بل عن جميع بنات جنسها ، لقد كان لزاما عليها في كل ليلة يدركها فيها الصباح "ان تتوقف عن الكلام المباح " وتواصل في اليوم الموالي وأرجأت مسألة تنفيذ القتل مدة "ألف ليلة وليلة" من خلال قصصها التي تشيد بالعفو والتسامح بدئا بحكاية " التاجر مع العفريت " وانتهاء بحكاية " معروف الاسكافي " لتصل إلى الليلة الواحدة بعد الألف ، إلى القصة الإطار حيث ينتصر النص لقيم التسامح فقد أعلن شهريار عن توبته عن قتل النساء، فبعد انتهاء الليالي الألف توقفت شهرزاد عن الإضمار والتشفيير : " قامت على قدميها وقبلت الأرض بين يدي الملك وقالت له يا مالك الزمان وفريد العصر والأوان إني جاريك ولي ألف ليلة وليلة وأنا أحدثك بحديث السابقين ومواعظ المتقدمين فهل لي في جنابك من طمع حتى أتمنى عليك أمنية فقال لها الملك تمني تعطي

يا شهرزاد فصاحت على الدادات والحواشية فقالت لهم هاتوا أولادي فجاءوا لها بهم مسرعين وهم ثلاثة أولاد ذكور<sup>(7)</sup>.

لقد بدأت لعبة المكاشفة وأحاطت نفسها بذكورها الثلاثة قبل أن تواجه ذكور مخاوفه القديمة بمطلبها الأنثوي الذي يجعله يعفو عنها وعن بنات جنسها وهذا ما كان لقد عفا عنها ، وتعلم التسامح والعدل ورفع الظلم بعد أن أخضعته لعملية تدريب طويلة ترقى به في معراج التسامح والعفو وتناهى به عن رؤى الرجل الصراعية.

### الخاتمة:

إن ألف ليلة وليلة بوصفها نتاجا معرفيا حضاريا يعكس مخزون الذاكرة المعرفية الجمعية قد غلّت من كثير من الأبعاد الاسطورية والأحلام البشرية الجمعية ومن الواقع بعلاقاته ومكوناته الرؤيوية "قصد الانتصار لقيم العدل والتسامح:

- إنها رصد أثر بلوجي لحضارات البشرية التي تسمو بالتسامح.
- إنها كشف للإنسان في تعامله مع الآخر وفي صراعه اليومي الذي يجب أن يحد منه التسامح.

\* ولما كانت تجلي لما يحدث في النفس البشرية وواقع الحياة فقد كان لابد لها أن تدين القساة الدين لا يسامحون وتشيد بالمسامحين.

\* وتبقى ألف ليلة وليلة تشكيلية هامة وفسيفساء عجيبة لعالم سحري إغرائي أخاذ، ألها حكايات تولد حكايات وخلق ينبجس عنه خلق آخر ليوقط وعي القارئ وينبهه إلى قيم التسامح من رافة وعفو ورحمة .

## الهوامش

- (1) - ليلي حوماني ، " تجليات العجيب في ألف ليلة و ليلة " .  
رسالة ماجستير ، معهد الثقافة الشعبية ، جامعة تلمسان  
2004/2003 ، ص1
- (2) - كاترينا مومسن ، " جوته و ألف ليلة و ليلة " ترجمة أحمد  
حمو ، سوريا ، 1980 ص126
- (3) - " ألف ليلة و ليلة " الجزء 1 ، دار المشهد الحسيني ، القاهرة  
، دط - دس ص7
- (4) - " مجلة فصول " - إستلهام ألف ليلة و ليلة - المجلد 13،  
العدد 2 ، الهيئة المصرية للكتاب ، صيف 1994 ، ص23
- (5) " ألف ليلة و ليلة " ج1- ص13
- (6) المصدر نفسه ، ج1 ص22
- (7) المصدر نفسه، ج 4 ص350